اعداد واخراج
موقع مؤسسة الإمام الكاظم عليه السلام ـ المكتبة العامة ـ مكتبة التاريخ والسيرة الإسلامية
http://www.alkadhum.org

الإمام الرضا (عليه السلام) قدوة وأسوة

تأليف
السيد محمد تقي المدرسي

تمهيـد

الحمد لله رب العالمين وسلام الله على الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين .
وصلى الله على سيد الخلق أجمعين المهيمن على رسالات الله خاتم النبيين محمد وعلى آله الهداة الميامين.
وبعد ..
إن حياة المعصومين الأربعة عشر كانت زاهرة بالحب والمعرفة والعبر والبصائر، إلاّ أن ما بلغنا من ضياء بعضهم كان أكثر من البعض الآخر، والإمام الرضا (ع) من أولئك الذين تسنَّت لنا فرصة الاهتداء إلى المزيد من فضائلهم، ولأنهم عند الله نور واحد، فليس علينا إلاّ الاستضاءة بسيرته (ع) لمعرفة سيرة سائر المعصومين من آبائه (عليهم جميعا سلام الله) .
وأظن أن حياة الإمام الرضا (ع) كانت فاتحة مرحلة جديدة من حياة الشيعة حيث خرجت بصائرهم وأفكارهم من مرحلة الكتمان إلى الظهور والإعلان، ولم يعد الشيعة من بعد ذلك العهد طائفة معارضة في مناطق خاصة، بل أصبحوا ظاهرين في كل البلاد، ولقب الرضا الذي أطلق على الإمام علي بن موسى (ع) يدل - فيما يدل - على أنه كان إماماً رضي به الموافق والمخالف .
وهـا نحن نتبرك بالحديث عنه سائلين الرب أن يرزقنا معرفته وأتباعه وشفاعته وشفاعة جده المصطفى (عليه وآله الصلاة والسلام) .

الفصل الأول: وجاء المولود الميمـون

يذكر الرواة أن أم الإمام موسى بن جعفر (ع) حميدة المصفاة كانت من أشراف العجم، فاشترت جارية قد ولدت في البلاد العربية وتربت فيها، فلما اختبرتها ووجدتها من افضل الناس في دينها وعقلها، اختارتها لولدها الإمام موسى بن جعفر (ع)، وقالت له : يا بني إن تكتم (وهذا أحد أسماءها) جارية ما رأيت جارية قط أفضل منها، ولست أشك أن الله تعالى سيطهر نسلها إن كان لها نسل، وقد وهبتها لك فاستوصي بها خيراً .

وذكروا من فضلها : أنها لمّا وَلدت للإمام علي الرضا كان الرضا يرتضع كثيراً وكان تام الخلق، فقالت: أعينوني بمرضعة فقيل لها : أنقص الدر ؟ فقالت : لا أكذب، والله ما نقص، ولكن علي ورد عن صلاتي وتسبيحي وقد نقص منذ ولَدت (1) .

وقد ذكر المؤرخون أسماء عديدة لوالدة الإمام، أما الجارية فكانت تسمى عند كل مولاة باسم جديد . فكانت تسمى نجمة، وأروى، وسكن وسمان، وتكتم وطاهرة . إلاّ أن أشهر الأسماء هي تكتم، وبعد ولادتها سميت طاهرة، وأم البنين .

وفي سنة مائة وثمان وأربعين من الهجرة في اليوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام (2) ولد الإمام (ع)، وعمَّ بيت الرسالة سرور وبهجة .

تقول أمه (تكتم الطاهرة) لمّا حملت بابني علي لم أشعر بثقل الحمل، وكنت أسمع في منامي تسبيحاً وتهليلاً وتمجيداً في بطني فيفزعني ذلك ويهولني، فإذا انتبهت لم أسمع شيئاً، فلما وضعته وقع على الأرض واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء يحرك شفتيه كأنه يتكلم، فدخل إلي أبوه موسى بن جعفر (ع) فقال لي : هنيئاً لك يا نجمة كرامة ربك، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى ودعا بماء الفرات فحنكه به ثم ردّه إلي وقال : خذيه فإنه بقية الله تعالى في أرضه (3).

وكــان الإمام موسى بن جعفر (ع) قد منحه لقب " الرضا " منذ نعومة أظفاره، كما أنه أعطاه كنية أبو الحسن فكان كثير الحب له، هكذا يروي المفضل بن عمر يقول :

دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر (ع) وعلي ابنه في حجره وهو يقبله ويمص لسانه، ويضعه على عاتقه ويضمه إليه ويقول : بأبي أنت ما أطيب ريحك وأطهر خلقك، وأبين فضلك ؟ قلت : جعلت فداك لقد وقع في قلبي لهذا الغلام من المودة ما لم يقع لأحد إلاّ لك، فقال لي : " يا مفضل هو مني بمنزلتي من أبي (ع) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم " .

قال : قلت هو صاحب هذا الأمر من بعدك ؟ قال : " نعم من أطاعه رشد ومن عصاه كفر " (4).

وهكذا ترعرع الوليد في ظل والده يزكيه بآداب الإمامة ويعلّمه أسرارها ويطلعه على ودائع النبوة .

وكان الإمام موسى بن جعفر يقول - حسبما جاء في حديث : -

" علي ابني أكبر ولدي وأسمعهم لقولي وأطوعهم لأمري، ينظر معي في كتاب الجفر والجامعة، وليس ينظر فيه إلاّ نبي أو وصي نبي " (5).

وخلال سني حياته مع والده تولى - فيما يبدو لي - إدارة بعض شؤون الطائفة نيابة عن والده، ولعل الحديث التالي يدل على ذلك . يقول زياد بن مروان القندي : دخلت على أبي إبراهيم (الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) وعنده علي ابنه، فقال لي :

" يا زياد هذا كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله " (6).

وقد أكثر الإمام موسى بن جعفر (ع) من بيان فضائل ابنه الرضا (ع) وأنه خليفته والإمام من بعده مما يثير السؤال عن حكمة ذلك، ولعل من الأسباب التي تهدينا إلى تلك الحكمة :

أن الظروف السياسية كانت قياسية جداً . حيث التقيّة في أشدها، وأهل البيت مطاردون، وهارون الرشيد كان يلاحق أصحاب وانصار أهل البيت من بلد إلى بلد، ويقتلهم زرافاتٍ ووحداناً . والإمام موسى بن جعفر يتنقل بأمره من سجن لآخر، فكانت إمكانية تفرق كلمة الشيعة بعد وفاته تجعل من الحكمة التأكيد على ولاية الإمام الرضا .

والأصحاب بدورهم كانوا يتوجسون خيفة من اختفاء الإمام فجأة دون معرفة الإمام من بعده، يظهر ذلك كله من بعض الأحاديث التالية :

روي عن يزيد بن سليط الزيدي قال : لقيت موسى بن جعفر فقلت : أخبرني عن الإمام بعدك بمثل ما أخبر به أبوك قال : " كان أبي في زمن ليس مثل هذا " .

قال يزيد فقلت من يرضى منك بهذا فعليه لعنة الله، قال فضحك ثم قال : " أخبرك يا أبا عمارة إني خرجت من منزلي فأوصيت في الظاهر إلى بنّي وأشركتهم مع علي ابني وأفردته بوصيَّتي في الباطن " (7).

ويروي علي بن عبد الله الهاشمي : قال : كنا عند القبر (أي قبر رسول الله صلى الله عليه وآله) إذ أقبل أبو إبراهيم موسى بن جعفر ويد علي ابنه في يده فقال : " أتدرون من أنا " ؟

قلنا : أنت سيدنا وكبيرنا، قال : " سموني وانسبوني " .

فقلنا أنت موسى بن جعفر، فقال : " من هذا معي " ؟

قلنا : هو علي بن موسى بن جعفر، قال : " فاشهدوا أنه وكيلي في حياتي ووصيي بعد موتي " (8) .

وقد اتخذ الإمام موسى بن جعفر (ع) كافة وسائل الاحتياط لبيان إمامة الإمام الرضا . فمثلاً : كتب كتاباً بذلك وأشهد عليه ستين رجلاً من وجوه أهل المدينة (9).

وكان يرجع الأمور إليه في حياته كما فعل عندما أشخص به إلى البصرة، حيث دفع إلى عبد الله بن وحوم كتباً وأمره بإيصالها إلى نجله الرضا في المدينة (10) .

وكتب في البصرة ألواحاً وبعثها إلى شيعته هناك وقد كتب فيها : عهدي إلى أكبر ولدي (11).

وكان يأخذ بعض الحقوق التي تجبى إليه ويبقي بعضها ليعطيه إلى وصيه الذي يطالبه به ليكون علامة ظاهرة كما فعل بداود بن زربي (12) .

وذلك شبيه بعكس الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها الإمام في حياة والده والتي احتاط الإمام موسى بن جعفر (ع) فيها لتبقى الإمامة بعيدة عن الشكوك .

ويظهر ذلك بوضوح من وصية لنجله بأن يسكت مادام الرشيد حياً فإذا هلك نطق بالحق .

ومن جهة أخرى في مثل هذه الظروف الصعبة التي كان الشيعة يعيشونها على عهد طاغية بغداد هارون الرشيد، كان من الممكن أن تنتشر الخرافات التي لها سوق رائجة عند اشتداد الأزمات . ولعل بعض التيارات السياسية كانت وراء نشر مثل تلك الخرافات لأهداف معينة . فدرءاً لمثلها قام الإمام الكاظم ببيان امامة ابنه الرضا بذلك الوضوح .

وبالرغم من أن فكرة غياب الإمام الكاظم انتشرت ردحاً من الزمان وغذتها أيد خائنة واخرى جاهلة، فقالوا بأن الإمام لم يمت وانه مهدي هذه الأمة، ووقفوا عند الإمام السابع فسمّوا (الواقفية) .

إلاّ أنها لم تلبث أن زالت، ويبدو أن أحد أهم أسباب ذلك، تأكيد الإمام (ع) في تعريف الشيعة بأن وصيَّه الإمام الرضا (ع) .

خلقه وفضائله :

كان الإمام الرضا (ع) بمثابة قرآن ناطق، فخلقه من القرآن، وعلمه ومكرماته من القرآن، أوليس القرآن هو آية الله العظمى في خلقه، أولم ييسّره ربنا لمن شاء من عباده أن يستقيم عليه ؟ أوَ يكون ذلك غريباً أن يصبح من تمثل القرآن في حياته آية عظمى لرب العالمين .

والنبي (ص) كان أفضل وأعظم ميزاته، أنه عبد يوحى إليه، وحين سأل بعضهم عن خلقه العظيم قال :

" كان القرآن خلقه .." .

وأعظم ميزات الإمام علي (ع) ان الله قد جعل أذنه واعية للقرآن .

وقد ذكّرنا الرسول بأنه يخلّف بعده الثقلين : كتاب الله وعترته أهل بيته، ثم بيّن أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض . أوَلا يعني ذلك أن أهل بيت الرسالة (ع) كانوا مشكاة نور القرآن ومعدن خيرات الوحي ومستقر علم الله ؟.

وكان الإمام الرضا (ع) قد تمثل هذا النور - بكل وجوده حتى جاء في الحديث : عن ابي ذكوان قال : سمعت إبراهيم بن العباس يقول :

ما رأيت الرضا (ع) سئل عن شيء قط إلاّ علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمنحه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن، وكان يختمه في كل ثلاث ليالٍ، ويقول :

" لو أردت أن أختمه في أقرب من ثلاثة لختمت، ولكني ما مررت بآية قط إلاّ فكرت فيها وفي أي شيء أنزلت وفي أي وقت، فلذلك صرت أختم كل ثلاثة أيام " (13) .

ولكن دعنا نعرف كيف تمثل إمامنا الرضا (ع) القرآن بهذه الدرجة، أو يمكننا أن نتبعه في ذلك ؟

القرآن كتاب الله ومن لا يتصل قلبه بنور الله لا يعرف كتابه، أو لم يقل ربنا سبحانه :

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً } (الاسراء / 82) .

وبدرجة الإيمان، وبمستوى اليقين، وبقدر تجلي عظمة الرب في القلب يستضيء الإنسان بنور الله الذي تجلى به في كتابه ..

والإمام الرضا (ع) عظَّم الله ووقره وسلّم له أمره واستصغر كل شيء سواه، واستعد لكل بلاء في سبيلــه، وكان كل ذلك وسيلته إلى ربه .

دعنا نلتمس بعض الشواهد على ما قلنا لا لنزداد بالإمام معرفة فقط، بل لكي تخشع قلوبنا أيضاً بهذه السيرة التي تفيض روحاً إلهياً وضياءً .

كان من عبادته (ع) أنه إذا صلّى الفجر في أول وقتها يسجد لربه فلا يرفع رأسه الى أن ترتفع الشمــس(14)..

وعندما كلّف المأمون العباسي وإليه على المدينة بمرافقة الإمام إلى خراسان، سأله - بعد مقدمه إليها - عن أحواله في الطريق ففصّل الحديث عن درجات عبادته وذكره وتبتله، فلما قص عليه ذلك أمره بأن يكتم عن الناس ذلك وكان مما نقله :

كان إذا أصبح صلى الغداة، فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله، ويصلي على النبي وآله حتى تطلع الشمس، ثم يسجد سجدة يبقى فيها حتى يتعالى النهار، ثم أقبل على الناس يحدثهم ويعظهم إلى قرب الزوال، ثم جدد وضوءه وعاد إلى مصلاه .. وبعد أن يذكر كيفية صلاته وسجداته ونوافله إلى وقت العصر

مما هو معروف في الفقه، ثم يقول أقام وصلى العصر فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله ما شاء الله، ثم سجد سجدة يقول فيها مائة مرة " حمداً لله " .

ثم يذكر كيف كان يصلي بعد غروب الشمس ويسبّح ربه حتى يمضي قريب من ثلث الليل ثم يأوي إلى فراشه .. فإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه لنافلة الليل، واستمر على ذلك حتى يطلع الفجر، ثم يجلس للتعقيب حتى تطلع الشمس، ويسجد حتى يتعالى النهار .

ويضيف : وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مر بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوَّذ من النار (15).

وكان الإمام يرى أن ماله من فضل إنما هو بالتقوى وليس فقط بالانتساب إلى رسول الله (ص) بالولادة .

هكذا ينقل البيهقي عن الصولي عن محمد بن موسى بن نصر الرازي قال : سمعت أبي يقول : قال رجل للرضا والله ما على وجه الأرض أشرف منك أباً، فقال : " التقوى شرفتهم وطاعة الله أعظمتهم " .

فقال له آخر : أنت والله خير الناس، فقال له :

" لا تحلف يا هذا، خير مني من كان أتقى لله عزّ وجلّ وأطوع له والله ما نسخت هذه الآية :

{ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } (16).

وهذا الحديث يذكرنا بما يروى عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : " لَولايتي لمحمد صلّى الله عليه وآله أحب إليّ من ولادتي منه " .

وهكذا أطاع الله بكل جوانب حياته، فأحبه الله ونوّر قلبه بضياء المعرفة وألهمه من العلوم ما ألهمه .

وجعله حجة بالغة على خلقه، أو لم نقرأ سورة (ص) كيف بيّن فيها ربنا مواهبه لعباده الصالحين، وأنه إنما أتاهم كل تلك المواهب لعبادتهم وإخلاصهم فقال مثلاً :

{ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } (ص/ 17) { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } (ص / 20) . إلى أن يقول : { فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَأَبٍ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } (ص/25-26) .

وهكذا أناب الإمام الرضا (ع) إلى ربه فوهب الله له ما شاء من الكرامة والعلم ..

لقد زهد في الدنيا واستصغر شأنها، ورفض مغرياتها، فرفع الله الحجاب بينه وبين الحقائق لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو حجاب سميك بين الإنسان وبين حقائق الخلق ..

يذكر البيهقي عن الصولي : كان جلوس الرضا في الصيف على حصير وفي الشتاء على مسح، ولبسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزين لهم (17).

وكان ذلك عندما أقبلت الدنيا عليه فلم يقبلها، وتزينت له فلم يغترّ بها . بل عندما كانت الخلافة العباسية في أوج عظمتها وبذخها وترفها وكان الإمام ولي عهد الخليفة في الظاهر يومئذ عاف الدنيا وشهواتها . هكذا تروي جارية اسمها عذر فتقول : اشتريت مع عدة جواري من الكوفة، وكنت من ولداتها (كانت مولودة في الكوفة) قالت : فحملنا إلى المأمون فكنا في داره في جنة من الأكل والشرب والطيب وكثرة الدنانير فوهبني المأمون للرضا، فلما صرت في داره فقدت جميع ما كنت فيه من النعيم، وكانت علينا قيّمة تنبهنا من الليل، وتأخذنا بالصلاة، وكان ذلك من أشد ما علينا فكنت أتمنى الخروج من داره (18).

وأعظم الزهد زهده في الخلافة بالطريقة التي عرضها عليه المأمون العباسي، فإن من الناس من يزهد في الدنيا طلباً لما هو أعظم من متاعها . ولا أعظم من الرئاسة في أعين الإنسان .

يقول الفضل بن سهل الذي شهد حوار المأمون مع الإمام الرضا في شأن الخلافة ما رأيت الملك ذليلاً مثل ذلك اليوم .

يقول المأمون العباسي فيما روي منه، فجهدت الجهد كله وأطمعته في الخلافة وما سواها فما أطمعني في نفسه (19).

السبيل إلى الله :

ومــن يعظم الله يعظم أولياءه، ومن يرفض توقير أولياء الله يفقد السبيل الى الله . والإمام الرضـا (ع) سلك هذا السبيل إلى ربه . ولعمري إن الشيطان يزين للإنسان مخالفة أولياء الله والتكبر عليهم حتى يضله عن سبيل الله القويم، ويلقيه في تيه السبل المتفرقة .

وكلما ازداد الإنسان تسليماً لقيادته الشرعية، وحباً لولي أمره، ولأولياء الله من الأنبياء والأوصياء والصالحين، كلما يزداد من ربه قرباً .

والإمام الرضا (ع) كان كما سائر الأئمة (ع) أطوع الناس لولي أمره الإمام موسى بن جعفر (ع) فجعله الله حجة من بعده .

يقول الإمام الكاظم :

" علي ابني أكبر ولدي وأسمعهم لقولي، وأطوعهم لأمري " (20).

وقال :

" علي أكبر ولدي وأبرهم عندي وأحبهم إلي " (21).

إن بين الإنسان وبين أولياء الله حجاب من الغرور والكبر، فمن خالف هواه وتحدى غروره وحارب كبر نفسه، يخرق هذا الحجاب، فيدخل في حزب الله وينتمي إلى أوليائه ويستقر في مقامه عند الله . لذلك أكّد القرآن على الكافرين قولهم :

{ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ } (القمر / 24) .

وقد جاء في حديث روي عن ابن أبي كثير قال : لما توفي موسى (ع) وقف الناس في أمره فحججت في تلك السنة فإذا أنا بالرضا (ع) فأضمرت في قلبي أمراً فقلت : أبشراً منا واحداً نتبعه فمر كالبرق الخاطف علي، فقال :

" أنا والله البشر الذي يجب عليك أن تتبعني . فقلت : معذرة إلى الله وإليك فقال : مغفور لك " (22).

الشجرة الطيبة :

كان الرضا من الشجرة الطيبة التي أكرمها الله، وبارك لأمة محمد فيها وقال سبحانه :

{ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (آل عمران / 34) .

ولقد اختار الله يحيى بن زكريا للنبوة وآتاه الحكم صبيّاً، بحكمته البالغة وإكراماً لوالده زكريا .

واختار مريم صديقة حينما نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً لله .

واختار عيسى ابن مريم (عليهما السلام) كرامة لوالدته الصديقة فكلم في المهد قائلاً : { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ } (مريم / 30) .
فلماذا نستغرب حينما يختار من أهل بيت محمد (ص) اثنا عشر نقيباً، أئمة هداة ميامين بحكمته البالغة وكرامة لأقرب الناس إلى الله سيد المرسلين محمد صلّى الله عليه وآله .

الخلق الكريم :
وقد فاضت من هذه النفس الكريمة تلك الأخلاق الحسنة التي تحدثنا بها كتب التاريخ، أوليس الطيب دليل الزهرة، والشعاع دليل الضياء ؟ وهل الإيمان إلاّ الحب، وهل دليل الحب غير تلك الأخلاق الحسنة ؟
كان (ع) في قمة التواضع وحسن المعاشرة مع الناس هكذا ينقل إبراهيم بن العباس يقول : ما رأيت أبا الحسن الرضا جفا أحداً بكلامه قط، وما رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجليه بين يدي جليس له قط، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط، ولا رأيته تفل قط، ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسم .
وكان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسائس، وكان (ع) قليل النوم بالليل، كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح، وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول : ذلك صوم الدهر، وكان (ع) كثير المعروف والصدقة في السر، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه (23).
وكان من تواضعه (ع) أنه دخل الحمام فقال له بعض الناس : دلكني فجعل يدلكه، فإذا بالناس يدعون الرجل يعرّفونه بالإمام، وإذا الرجل جعل يستعذر منه ولكنه يطيب قلبه ويستمر في تدليكه (24) .
ويروي رجل من أهل بلخ رافق الإمام في سفره إلى خراسان ويقول : دعا يوماً بمائدة له فجمع مواليه من السودان وغيرهم، فقلت : جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال : مه إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد، والجزاء بالأعمال (25) .
وكان يكره لغلمانه أن يقوموا له احتراماً عندما يكونون على الطعام ويقول : " إن قمت على رؤوسكم وأنتم تأكلون، فلا تقوموا حتى تفرغوا " (26) .
وكان عظيم الحلم والعفو، ويذكر من حلمه أن قائداً من أتباع بني العباس يسمى بـ (الجلودي) أمره هارون الرشيد بأن يذهب إلى المدينة ويسلب نساء آل أبي طالب، ولا يدع على كل واحدة منهن إلاّ ثوباً واحداً، ففعل الرجل، مما أثار سخطاً عظيماً عند الإمام الرضا (ع)، ولكن بعد أن عهد إلى الإمام الرضا بولاية العهد عارض ذلك الجلودي ونقم من بيعة الإمام فغضب عليه المأمون، وأخرجه يوماً ليقتله من بعد أن قتل اثنين قبله فلما تمثل أمامه شفع له الإمام الرضا عند المأمون وقال :
" يا أمير المؤمنين هب لي هذا الشيخ " .
فظن الجلودي أنه يعين عليه، فأقسم على المأمون ألا يقبل قوله . فقال المامون والله لا أقبل قوله فيك، وأمر بضرب عنقه (27) .
وكان سخياً كريماً . وكان من آدابه في الصدقات أنه إذا جلس للأكل أتى بصفحة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئاً فيوضع في تلك الصفحة، ثم يأمر بها للمساكين ثم يتلو هذه الآية :

{ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ } (البلد /11) .

ثم يقول :

" علـم الله عز وجل أن ليـس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل الجنة (عبر الإطعام) " (28) .

وفرّق بخراسان ماله كله في يوم عرفة، فقال له الفضل بن سهل : إن هذا لمغرم، فقال (ع) :

" بل هو المغنم، ولا تعدن مغرماً ما اتبعت به أجراً وكرماً " (29) .

وكان إذا أعطى أحداً سعى ألا يذهب بهاءه ولا يراق ماء وجهه، والقصة التالية تعلمنا كيف نجعل صدقاتنا خالصة لوجه الله لا منّة فيها ولا استعلاء .

يروي اليسع بن حمزة ويقول : (كنت أنا في مجلس أبي الحسن الرضا (ع) أحدثه وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوالٌ أدم، فقال له : السلام عليك يا ابن رسول الله، رجل من محبيك ومحبي أبائك وأجدادك (ع) مصدري من الحج، وقد افتقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلةً، فان رأيت أن تنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك، فلست موضع صدقة فقال له : إجلس رحمك الله، وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا، وبقي هـو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا، فقال : تأذنون لي في الدخول ؟ فقال له : يا سليمان قدم الله أمـرك، فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب، وأخرج يده من أعلى الباب وقال : أين الخراساني ؟ فقال : ها أنا ذا فقال : خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤنتك ونفقتك وتبرك بها ولا تصدق بها عني، وأخرج فلا أراك ولا تراني .

ثم خرج فقال سليمان : جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه ؟ فقال :

" مخافـة أن أرى ذلك السؤال في وجهه لقضائي حاجته ،أما سمعت حديث رسول الله (ص) : "المستتر بالحسنة، تعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له " أما سمعت قول الأول :

متـى آتـه يومـاً لأطلـب حـاجـة * رجعت إلى أهلـي ووجهي بمـائـه " (30)

وقد أعطى أبا نواس ثلاثمائة درهم لم يكن عنده سواها، وقدّم إليه بغلته التي كان يمتطيها، وحينما أعطى دعبل الخزاعي ستمائة دينار اعتذر إليه .

وكان كثير الصدقة في السر، وأكثرها كان في الليالي المظلمة (31) .

وكان (ع) مكتمل الجسم عظيم الهيبة . وكأيِّن من ذي حاجة دخل عليه ليطلبها منه فشغله جلاله وهيبته عنها فبادره الإمام بقضائها، وسنذكر جانباً من ذلك عن بيان علمه .

هكذا أفاض الإمام علمـه :

أربعة من أئمة الهدى تسنى لهم نشر معارف الإسلام في الآفاق . أولهم الإمام أمير المؤمنين وآخرهم الإمام الرضا والصادقان محمد بن علي وجعفر بن محمد (عليهم جميعاً صلوات الله) .

وبالرغم من أن جميع أئمة الهدى نشروا العلم، إلاّ أن الظروف ساعدت هؤلاء الأربعة على ذلك أكثر من الآخرين .

ولقد سبق الحديث - ببعض التفصيل - عن علم الأئمة ومصادره المتنوعة فيما سردته من حياة الإمام الباقر (ع) فنكتفي بذلك، وإنما نشير إلى آفاق العلم التي تناولتها أحاديث الإمام الرضا (ع) ونقل عن اليقطيني أنه قال : لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب عنه خمس عشرة ألف مسألة " (32) .

ولقد قال الإمام مرة :

" كنت أجلس في الروضة والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا أعيا الواحد منهم عن مسألة أشاروا إلي بأجمعهم وبعثوا إلي بالمسائل فأجيب عنها " (33) .

وقد بدأ بالفتيا في مسجد الرسول، وعمره الشريف نيف وعشرون عاماً .

ولنعرف دور الإمام الرضا في هذا الحقل لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء، لنعرف أن الحزب العباسي الذي تسلط على رقاب المسلمين بعد الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب السلطة الأموية قد وجد نفسه أمام تيارات سياسية معارضة، تعتمد على الفكر، وتتسلح بالنظريات الثقافية، وفي طليعتها التيار العلوي الذي كان يقود المعارضة السياسية إلى جنب قيادة الساحة الفكرية، والحزب العباسي الذي كان يعيش خواءً نظرياً قاتلاً لم يجد حيلةً إلاّ البحث عن مصادر خارجية للثقافة، فشجع حركة الترجمة وتوجه إلى الكتب الفلسفية قبل الكتب العلمية، وبنشاط هذه الحركة حدث في الأمة اضطراب فكري وتوتر ثقافي مما أضحى يهدد وحدة الأمة .

وكانت عوامل شتى تساهم في هذا الخطر :

اولاً : انشغال المفكرين بالقضايا السياسية .

ثانياً : ازدياد الإضراب السياسي، والحروب الداخلية التي تجر بطبيعتها الأمة إلى المزيد من التوتر الفكري .

ثالثاً : وجود تيارات غريبة عن الأمة كان هدفها إفساد ثقافة المجتمع ومحاربة الإسلام باسم الإسلام، والتي كانت تغذيها حركات سياسية متصلة بالكفار .

وفي عهد المأمون العباسي بلغ الإضطراب الفكري قمته مما دفع الإمام الرضا (ع) بالتصدي لها .

وقد ساعده في ذلك انتقاله إلى حاضرة البلاد الإسلامية، وقبوله لولاية العهد مما جعله في قلب الصراعات الفكرية .

وهكذا كثرت حواراته مع سائر الملل والمذاهب، مما حدى بعلمائنا الكرام إفراد كتب حول ما روي عنه (ع)، مثل ما فعل الصدوق (رحمه الله) في كتابه عيون أخبار الرضا .

وحينما نتدبر في كلمات الإمام الرضا وحججه التي ألقاها على خصوم الإسلام أو مخالفي المذهب نراها تتسم بمنهجية علمية عميقة . مما يدل على مستوى الثقافة في عصره لأن الأئمة - كالأنبياء (عليهم جميعاً صلوات الله) - إنما يكلمون الناس على قدر عقولهم، وبمستوى أفكارهم .

كذلك نستوحي من التأمل في كلماته أنها كانت تصد تشكيكات يبثها الأعداء حول الإسلام وبالذات حول عقلانية أحكامه، من هنا كثرحديثه عن علل الشرائع، والحكم التي وراء أحكام الدين . كما أن طائفة من كلماته المضيئة تعالج الشؤون الحياتية مثل رسالته الطبية المعروفة بطب الرضا (ع) .

ومما يميز حياة الإمام الرضا (ع) العلمية أن كلماته كانت تلقى قبولاً في كافة الأوساط الإسلامية، ولعل ورود مدينة نيسابور التي كانت من الحواضر العلمية في العالم الإسلامي أظهرت مدى اهتمام علماء الإسلام بأحاديث الإمام، دعنا نستمع إلى هذه القصة الطريفة :

(لما دخل إلى نيسابور في السفرة التي فاض فيها بفضيلة الشهادة، كان في مهد على بغلة شهباء عليها مركب من فضة خالصة، فعرض له في السوق الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية أبو زرعة ومحمد بن أسلم الطوسي رحمهما الله فقالا : أيها السيد ابن السادة، أيها الإمام وابن الأئمة أيها السلالة الطاهرة الرضية، أيها الخلاصة الزاكية النبوية بحق آبائك الأطهرين وأسلافك الأكرمين إلاّ أريتنا وجهك المبارك الميمون، ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدك، نَذْكُرك به .

فاستوقف البغلة، ورفع المظلة، وأقر عيون المسلمين بطلعته المباركة الميمونة، فكانت ذؤابتاه كذوابتي رسول الله (ص) فقال (ع) :

" حدثني أبي موسى بن جعفر الكاظم، قال : حدثني أبي جعفر بن محمد الصادق قال : حدثني أبي محمد بن علي الباقر، قال : حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين، قال : حدثني أبي الحسين بن علي شهيد أرض كربلاء، قال : حدثني أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شهيد أرض الكوفة، قال : حدثني أخي وابن عمي محمد رسول الله (ص) قال : حدثني جبرائيل (ع) قال : سمعت رب العزة سبحانه وتعالى يقول :

(كلمة لا إله إلاّ الله حصني فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي) " .

صدق الله سبحانه وصدق جبرائيل (ع) وصدق رسول الله والأئمة عليهم السلام (34).

---

(1) بحار الأنوار : (ج 49، ص 5) .

(2) وقيل بل ولد في الحادي عشر من ذي الحجة، أنظر المصدر : (ص 2 - 3)

(3) المصدر : (ص 9) .

(4) المصدر : (ص 21) .

(5) المصدر : (ص 20) .

(6) المصدر : (ص 19) .

(7) المصدر : (ص 11) .

(8) المصدر : (ص 15) .

(9) المصدر : (ص 17) .

(10) المصدر : (ص 16) .

(11) المصدر : (ص 19) .

(12) يبدو من بعض الأحاديث أن هذا الرجل كان يعيش حالة التقية مما يجعل هذا الإجراء مناسباً لحاله .

(13) المصدر : (ص 90) .

(14) المصدر : (ص 90) .

(15) المصدر باختصار : (ص 92 - 94) .

(16) المصدر : (ص 95) .

(17) بحار الأنوار : (ج 49، ص 89) .

(18) المصدر : (ص 89)

(19) المصدر : (ص 20) .

(20) المصدر : (ص 145) وسيأتي الحديث إن شاء الله مفصلاً حول ما جرى بينه (ع) وبين المأمون .

(21) المصدر : (ص 24) .

(22) بحار الأنوار : (ج 49، ص 38) .

(23) المصدر : (ص 91) .

(24) المصدر : (ص 99) .

(25) المصدر : (ص 101) .

(26) المصدر : (ص 102) .
(27) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص 108) سيرة الرضا .
(28) بحار الأنوار : (ج 49، ص 97) .
(29) المصدر : (ص 100) .
(30) المصدر : (ص 101) .
(31) المصدر : (ص 110) .
(32) المصدر : (ص 97) .
(33) المصدر : (ص 100) .
(34) بحار الأنوار : (ج 49، ص 126 - 127) .

الفصل الثاني: الإمام وعصره

عاش الإمام الرضا (ع) عصرين مختلفين وكان عهد هارون الرشيد من أقسى العهود على آل البيت، حيث قرأنا عما في سيرة الإمام الكاظم (ع) كيف ضيّق العباسيون على شيعة أهل البيت، وكيف آذوا الإمام وهجّروه عن دار أمنه عند قبر جده إلى البصرة، ثم الى بغداد حيث وضعوه إما تحت الإقامة الجبرية، وإما في قعر السجون المظلمة حتى دسوا إليه السم، فمات شهيداً مظلوماً .

وخلال السنين الأربع الأولى من عهد إمامته تجرع الإمام كوالده غصص الألم . وهناك قصتان تعكسان طبيعة هذه الغصص :

1 - يروي أبو الصلت الهروي : كان الرضا ذات يوم جالساً في منزله إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد فقال : أجب أمير المؤمنين فقام، فقال لي :

" يا أبا الصلت إنه لا يدعوني في هذا الوقت إلاّ لداهيةٍ، فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه لكلمات وقعت إليّ من جدي رسول الله " .

قال فخرجت معه حتى دخلنا على هارون الرشيد فلما نظر إليه الرضا قرأ هذا الحرز (وذكره) فلما وقف بين يديه نظر إليه هارون الرشيد وقال : يا أبا الحسن قد أمرنا لك بمائة ألف درهم، واكتب حوائـــج أهلـــك، فلما ولي عنه علي بن موســى وهارون ينظر إليه في قفاه قال : (أردت وأراد الله وما أراد الله خيـــر) (1) .

وقد أشار يحيى البرمكي على هارون بقتل الإمام الرضا كما أشار غيره بذلك فاستعظم الأمر، وقال : ما ترى تريد أن أقتلهم كلهم .

2 - والقصة الثانية تلك التي رويناها سابقاً عن دخول الجلودي على الإمام وسلبه أهله . حتى هلك هارون، وشب الخلاف بين ورثته بدأ الإمام نشاطه بقدر من الحرية النسبية .

لقد وصّى هارون لثلاثة من أبنائه بولاية العهد وهم الأمين والمأمون والمؤتمن بالترتيب، ولمعرفته بميول العباسيين إلى الأمين الذي كانت والدته زبيدة ترعاه، خشي على المأمون الذي كان يرى فيه كفاءة أكثر لادارة البلاد فمنحه بعض المناصب في الدولة ..

وكـان الفرس الذين كانوا لا يزالون متنفذين في الدولة العباسية بالرغم من نكبة البرامكة يميلون نحو المأمون لأن أمه منهم ولأنه تربى في أحضانهم .

من هنا كانت سحُب الفتنة تتجمع في سماء الأمة، وكان هلاك هارون الرشيد في خراسان في وقت مبكر وقبل أن يرتب أوضاع البلاد، فعجَّل ذلك في اشتعال نار الفتنة، كما أن مرافقة المأمون لوالده التي جاءت - حسب بعض الروايات - بإشارة من فضل بن سهل ساهمت فيها .

لقد سارع الأمين وربما بإشارة من بعض قواده العباسيين في خلع أخيه ونصب ابنه ولياً للعهد، وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون ذلك مما حدى بالأمين إلى بعث بعض قواده ليأتون به مغلولاً .

وقد شجع المأمون بعض قادة جيشه ولا سيما من هم من الفرس على التمرد، ففعل وانتهى إلى الحرب بين الأخوين التي انتهت بخلع الأمين واستتب الأمر لأخيه .

وكانت هذه الحرب أول حرب بين العباسيين، ومن أسوأ الحروب الداخلية بين المسلمين . مما زعزع الثقة بالنظام السياسي عند الجماهير وشجع المعارضة على الثورة، فإذا بأطراف البلاد تنتفض وتخلع الحاكم وتبايع واحداً من العلويين .

وكانت أخطر وأعظم هذه الثورات حركة أبي السرايا في الكوفة التي قادها السري بن منصور، وعقدت لواء الزعامة لواحد من أبناء الإمام الحسن المجتبى (ع) واسمه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل .

وانتشرت هذه حتى شملت الكوفة والواسط والبصرة والحجاز واليمن . ووقعت بينها وبين جيوش بني العباس معارك طاحنة لم يظفر العباسيون بها إلاّ بالحيلة والمكر (2) .

وفي مكة المكرمة ثار محمد ابن الإمام جعفر الصادق (ع) وبويع بالخلافة ولقب بـ (أمير المؤمنين) .

وكانت هناك ثورات أخرى في بلاد الشام والمغرب وكلها تدل على اضطراب الوضع السياسي، حتى أن الناس لم يبايعوا المأمون إلاّ بعد أن استتب الأمر له وعاد إلى بغداد، وبعد حروب أكلت مئات الألوف من المسلمين .

وكان عصر المأمون يتميز - كما أشرنا سابقاً - بتنامي التيارات الفكرية الغريبة التي كان من شأنها زعزعة النظام الثقافي للأمة، وكانت نتيجة طبيعية لحركة الترجمة التي شجّعها العباسيون من دون رؤية .

كما أن الثقة عند قيادات الجيش الذي يمثل العماد الأصلي للنظام كادت تنهار، حتى قال هرثمة بن حازم (أحد قيادات العسكر) للمأمون :

يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك (3) .

ولعلنا نضيف إلى كل ذلك حالة المجون والترف التي اشتهرت بين رجال الدولة وبطانتهم، والتي كان يشجعها النظام لإلهائهم عن الحقائق المرة التي يعيشها المسلمون . وإذا كان آل (برمك) بالأمس أبطال هذا الميدان، فإن آل (سهل) خلفوهم فيه، وما يذكره بعض المؤرخين عن زواج الخليفة (ببوران) وما رافقه من مظاهر البذخ والترف شاهد على ذلك .

الإمام الرضا يتحدى الفساد :

حينما نتدبر في سورة هود أو سائر السور القرآنية التي تقص علينا رسالة الأنبياء السابقين (ع) نجد أنهم يتحدون الفساد بكل ألوانه . وبالذات الفساد الذي كان مستشرياً في قومهم، ويعتبرون كل فساد سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو فكري ينتهي إلى الضلالة أو الشرك أو الكفر وكانوا (ع) يذكِّرون الناس بالله

ويحذِّرونهم عذابه في الدنيا وعقابه في الآخرة، لأن هذا هو السبيل لإصلاح الإنسان وردعه عن الفساد بكل ألوانه .

وسار الأئمة (ع) على طريق الأنبياء، حاربوا كل ألوان الفساد، بذات الوسيلة، والإمام الرضا (ع) كأجداده قاد المخلصين من أبناء الأمة في هذا السبيل وتحمل الأذى في سبيل الله .

لقد رفض الاعتراف بالسلطة الجاهلية التي بناها العباسيون باسم الإسلام واعتبرها سلطة غاصبة ظالمة فاسدة جملةً وتفصيلاً .

وناهض التيارات الفكرية المخالفة لأصول الشريعة، وقاوم الفساد الخلقي في الأمة وذلك بنشر تعاليم الدين الحنيف .

ولم يكن الإمام وحده في مواجهة ذلك الفساد العريض، بل كانت صفوة الأمة وخيرة العلماء والحكماء والقادة المخلصين وهم شيعة أهل البيت (ع) يتبعونه في ذلك .

وقد قرأنا معاً كيف وبأي أسلوب كان الأئمة يقودون الأمة، ولكن هنا ينبغي أن نتحدث قليلاً عما أثار التساؤل عند المؤرخين، وهي نقطةٌ مضيئةٌ - في رأينا - تلمع في حياة الإمام الرضا، ومنعطف أساسي في حركة الشيعة وهي قبول الإمام بولاية عهد المأمون .

وقبل كل شيء نتساءل عن الأسباب التي دفعت الخليفة العباسي للإقدام على هذه الخطوة الجريئة .

المأمون يتقرب للإمام :

والمأمون الذي ولد من أم فارسية، وتربى في حجر المؤيدين للبيت العلوي، وعرف الكثير من تاريخ الإسلام وتبحَّر في علم الكلام، هل كان شيعياً فعلاً، وهل كان عهده إلى الإمام الرضا بدافع سليم، ثم انقلب عن ذلك ودس السم إلى الإمام لأن الملك - كما قال والده هارون له يوماً - عقيم وأنه لو نازعه فيه لأخذ الذي فيه عيناه ؟

أم كانت خطة دبرها الفضل بن سهل وغيره من بطانته ووقع فيها من دون التفات، ثم عاد عنها وقتل الفضل غيلة في الحمام وقضى على الإمام بالسم ؟

أم أنها كانت خطته اشترك فيها هو وغيره من القادة، وكانت مجرد لعبة سياسية ؟

كل ذلك ممكن ! ولم أجد فيما اطلعت عليه من التاريخ ما يدل على واحد من الإحتمالات بالتأكيد، على أني أميل إلى الإعتراف بكل العوامل التاريخية، وآخذها بعين الإعتبار عند تفسير ظاهرة معينة، لأن مثل هذه العوامل تتفاعل مع بعضها في حياتنا وتصنع من حيث المجموع حياتنا الحاضرة، فلماذا لا نعتقد أن الماضي كالحاضر تصنعه كل العوامل المؤثرة في حياة البشر ؟

من هنا أميل إلى الرأي التالي .. أن كلا من خلفية المأمون الثقافية، والظروف السياسية، ورأي بطانته، أقرت في الإقدام على هذه الخطوة الجريئة، ولولا واحدة منها لم يقدم ..

وهذا يعني أن انقلاب المأمون على الإمام الرضا (ع) جاء بعد تحول الظروف السياسية - وأن الرجل لم يكن شيعياً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهو إتِّباع أهل البيت، والتعبد لله في طاعته، إنما كان متأثراً ببعض الأفكار الشيعية كتفضيل أمير المؤمنين (ع) على غيره من الخلفاء، والإعتقاد بخيانة معاوية، وبأن القرآن كتاب محدث وما أشبه .

إلاّ أن ذلك لا يجعل الفرد شيعياً في نظر الأئمة (ع) وهو بالتالي كان صاحب سلطة يبحث عنها أكثر مما يبحث عن المبادئ والقيم .

ولعل والده هارون كان يشير إلى ابنه وإلى خواصّ أهل بيته كما يشير الطغاة عادة إلى بطانتهم من الإعتراف بحق معارضيهم، وذلك عندما تستيقظ ضمائرهم ولو لفترة محدودة . وهكذا يروي المأمون أنه إنما تشيّع على يد والده .

وقد أسرّ المأمون إلى بعض خواصه بالسبب الذي دعاه إلى هذا الأمر، فعن الريّان بن الصلت قال : أكثر الناس في بيعة الرضا (ع) من القواد والعامة، ومن لا يحب ذلك، وقالوا : إن هذا من تدبير الفضل بن سهل ذي الرئاستين، فبلغ المأمون ذلك، فبعث إليَّ في جوف الليل فصرت إليه، فقال : يا ريّان بلغني أن الناس يقولون : أن بيعة الرضا (ع) كانت من تدبير الفضل بن سهل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين يقولون هذا . قال : ويحك يا ريّان أيجسر أحد أن يجيء إلى خليفة قد استقامت له الرعية والقواد، واستوت له الخلافة فيقول له إدفع الخلافة من يدك إلى غيرك، أيجوز هذا في العقل ؟ قلـــت لـــه : لا والله يا أمير المؤمنين ما يجسر على هذا أحد، قال : لا والله ما كان كما يقولون ولكن سأخبرك بسبب ذلك .

إنه لما كتب إليّ محمد أخي يامرني بالقدوم عليه فأبيت عليه، عقد لعلي بن عيسى بن ماهان وأمره أن يقيِّدني بقيد ويجعل الجامعة في عنقي، فورد علي بذلك الخبر، وبعثتُ هرثمة بن أعين الى سجستان وكرمان وما والاهما فأفسد علي أمري، وانهزم هرثمة وخرج صاحب السرير، وغلب على كور خراسان، من ناحيته، فورد عليَّ هذا كله في أسبوع .

فلمـــا ورد ذلك عليَّ لم يكن لي قوة بذلك ولا كان لي مال أتقوى به، ورأيت من قوادي ورجالـــي الفشـــل والجبن، أردت أن ألحق بملك كابل، فقلت في نفسي : ملك كابل رجل كافر ويبذل محمد له الأموال فيدفعني إلى يده، فلم أجد وجهاً أفضل من أن أتوب إلى الله عزّ وجلّ من ذنوبي وأستعين به على هذه الأمور وأستجير بالله عزّ وجلّ ، فأمرت بهذا البيت وأشار إلى بيت تكنس، وصببت عليَّ الماء، ولبست ثوبين أبيضين وصليت أربع ركعات، قرأت فيها من القرآن ما حضرني ودعوت الله عزّ وجلّ واستجرت به، وعاهدته عهداً وثيقاً بنية صادقة إن أفضى الله بهذا الأمر إليَّ وكفاني عاديته، وهذه الأمور الغليظة، أن أضع هذا الأمر في موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه .

ثم قوي فيه قلبي فبعثت طاهراً إلى علي بن عيس بن هامان فكان من أمره ما كان، ورددت هرثمة إلى رافع (بن أعين) فظفر به وقتله، وبعثت إلى صاحب السرير فهادنته وبذلت له شيئاً حتى رجع، فلم يزل أمري يقوى حتى كان من أمر محمد ما كان، وأفضى الله إلي بهذا الأمر، واستوى لي .

فلما وافى الله عزّ وجلّ لي بما عاهدته عليه، أحببت أن أفي الله تعالى بما عاهدته، فلم أر أحداً أحـق بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا (ع)، فوضعتها فيه فلم يقبلها إلا إن عليَّ ما قد عملت، فهذا كان سببهـا) (4) .

ولعل هذا السبب كان أيضاً من الدواعي المساعدة إلاّ أن أبرز العوامل التي دفعته إلى ذلك كانت الظروف السياسية التي أشرنا إليها حيث كانت علاقته بالعباسيين سيئة لقتله أخاه أميناً، كما أن القيادات العربية لم تكن راضية عنه بسبب تفضيله الصارخ للقيادات الفارسية، أما أنصار البيت العلوي فقد رأوا ووجدوا الفرصة مؤاتية للإنتقام من السلطة العباسية الغاشمة، وانتفضوا في كل مصر . فماذا بقي له من فرص الإستمرار في السلطة ؟

ولكن محصلة خطط المأمون، والأقدار التي أجرت الرياح في اتجاهه كانت التالية .

1 - اكتساب ود أنصار البيت العلوي باستقدام الإمام الرضا لولاية عهده .

2 - تصفية لكثير من الثورات بالأعمال العسكرية وبقدر من السماحة والعطاء .

3 - الإلتفاف على العباسيين واكتساب ودّهم والعودة إلى خطهم، بعد تصفية الفضل بن سهل، وشهادة الإمام الرضا (ع) .

وهكذا تسنى للمأمون أن يستمر في الحكم وأن يحافظ على العرش العباسي من بعده .

الإمام يستجيب للتحدّي :

لماذا قبل الإمام الرضا (ع) ولاية عهد المأمون، وإذا كان مضطراً إلى ذلك فكيف استجاب لتحديه ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد أن نلقي نظرة إلى واقع الحركة الرسالية عندما تولى الرضا مركز الإمامة من بعد والده الإمام الكاظم (عليهما السلام) .

في حديث شريف : كان من المقدر أن يكون الإمام موسى بن جعفر هو قائم آل محمد (ص) إلاّ أن الشيعة أذاعوا الأمر فبدا لله فتأخر إلى أجل غير مسمى .

وهذا يعني أن الحركة الرسالية كادت تبلغ يومئذ إلى مستوى التصدي لشؤون الأمة . وبالرغم من أن الإمام الكاظم (ع) قضى نحبه في سجن هارون مسموماً، إلاّ أن الحركة لم تصب بأذى كثير كما نستفيد ذلك من حديث شريف .

وهكذا كانت إمامة الإمام الرضا (ع) واحدة من فرصتين :

الأولى : القيام بحركة مسلحة قد تنتهي إلى دمار الحركة .

الثانية : الإستجابة لتحدي المأمون بقبول ولاية العهد للعمل من خلال السلطة دون إعطاء شرعية لها، كما فعل النبي يوسف حينما طلب من عزيز مصر بأن يجعله على خزائن الأرض . ثم قام بما استطاع إليه سبيلا، من الإصلاح من داخل النظام ..

وكما فعل الإمام أمير المؤمنين (ع) مع الخلفاء الذين سبقوه عندما قبل بالدخول في الشورى كواحد من ستة أعضاء .

وأقل ما في هذه الفرصة الثانية أنها تشكل حماية للحركة الرسالية من التصفية، والقبول بها كحركة معارضة رسمية .

وهكذا نعرف أن الإمام لم يترك قيادته للحركة الرسالية - بل استفاد من مركزه الجديد، كما استفاد الشيعة لدعم مسيرة حركتهم الرسالية التي فرضت نفسها على النظام فرضاً .

ولتحقيق هذه الغايات اتبع الإمام النهج التالي :

أولاً : امتنع عن قبول الخلافة التي عرضها عليه المأمون أولاً، ولعل السبب في رفض الخلافة كان أمرين :

ألف : إن تلك الخلافة كانت ثوباً خاصاً بأمثال المأمون وإنها لا تليق بحجة الله البالغة، لأن بنائها كان قائماً على أساس فاسد، جيشها ونظامها وقوانينها وكل شيء فيها، ولو قبل الإمام بها كان عليه أن يهدمها ويبنيها من جديد ولم يكن ذلك أمراً ممكناً في تلك الظروف .

بـاء : إن المأمون لم يكن صادقاً في عرضه، فهو كان يدبر حيلة مع حزبه الماكر للإيقاع بالإمام إن قبـــل، بعد أخذ الشرعية منه، كما فعل بالنسبة إلى ولاية العهد .

ثانياً : اشترط في قبوله لولاية العهد ألاّ يتدخل في شؤون الدولة من قريب أو بعيد، مما أفقدهم القدرة على تمشية الأمور باسم الإمام وكسب الشرعية له وأبان للعالمين ذلك اليوم وللتاريخ إلى الأبد أنه لا يعترف بشرعية النظام بأي وجه . وقد حاول المأمون مراراً أن يستدرج الإمام للتدخل في الشؤون فلم يقبل والحديث التالي يدل على ذلك :

إن المأمــون لمّا أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بإمرة المؤمنين، وللرضا (ع) بولاية العهـد، وللفضـــل بـــن سهل بالوزارة، أمر بثلاثة كراسي فنصبت لهم، فلما قعدوا عليها أذن للناس، فدخلوا يبايعون فكانوا يصفقون بأيمانهم على أيمان الثلاثة من أعلى الإبهام إلى الخنصر ويخرجون حتى بايع في آخر الناس فتى من الأنصار فصفق بيمينه من الخنصر إلى الإبهام، فتبسم أبو الحسن الرضا (ع) ثم قال :

" كل من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فإنه بايعنا بعقدها " .

فقال المأمون : وما فسخ البيعة من عقدها ؟ قال أبو الحسن (ع) :

" عقد البيعة هو من أعلى ا لخنصر إلى أعلى الإبهام وفسخها من أعلى الإبهام إلى أعلى الخنصر " .

قال : فماج الناس في ذلك وأمر المأمون بإعادة الناس إلى البيعة على ما وصفه أبو الحسن (ع) وقال الناس : كيف يستحق الإمامة من لا يعرف عقد البيعة، إن من علم لأولى بها ممن لا يعلم، قال : فحمله ذلك على ما فعله من سمه (5) .

ثالثاً : منذ الأيام الأولى لولايته للعهد انتهز الإمام كل فرصة ممكنة لنشر بصائر الوحي، وأظهر أنه أحق بالخلافة من غيره، فمثلاً نقرأ في وثيقة ولايته للعهد ما يدل على أن المأمون إنما عمل بواجبه في الأحتفاء بأهل بيت الرسالة، دعنا نقرأ ونتدبر معاً الوثيقة التالية :

" بسم ا لله الرحمن الرحيم الحمد لله الفعّال لما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وصلى الله على نبيّه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين .

أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر أن أمير المؤمنين عضّده الله بالسداد ووفقّه للرشاد، عرف من حقنا ما جهله غيره، فوصل أرحاماً قطعـت، وآمن نفوساً فزعت، بل أحياها وقد تلفت، وأغناها إذ افتقرت، مبتغياً رضى رب العالمين، لا يريد جزاء من غيره، وسيجزي الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين .

وإنه جعل إلي عهده، والأمرة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حل عقدة أمر الله بشدها، وقصم عروة أحب الله إيثاقها، فقد أباح حريمه، وأحل محرمة، إذ كان بذلك زارياً على الإمام، منتهكاً حرمة الإسلام، بذلك جرى السالف، فصبر منه على الفلتات، ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً على شتات الديــن، واضطراب حبل المسلمين، ولقرب أمر الجاهلية، ورصد فرصة تنتهز، وبائقة تبتدر .

وقد جعل لله على نفسي أن استرعاني أمر المسلمين، وقلّدني خلافته، والعمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله (ص) وأن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيح فرجاً، ولا مالاً إلاّ ما سفكته حدوده، وأباحته فرائضه، وأن اتخير الكفاة جهدي وطاقتي، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني الله عنه، فإنه عزّ وجلّ يقول :

{ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً } (الاسراء / 34) .

وإن أحدثت أو غيّرت أو بدّلت كنت للغير مستحقاً، وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه، وإليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين .

والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك، وما أدري ما يفعل بي، ولا بكم إن الحكم إلاّ لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين .

لكني امتثلت أمر أمير المؤمنين، وآثرت رضاه، والله يعصمني وإياه، وأشهدت الله على نفسي بذلك، وكفى بالله شهيداً " (6) .

وهناك بصائر نستوحيها من كلمات الرضا المضيئة :

أولاً : قوله (ع) : " عرف من حقنا ما جهله غيره إلخ " .

حيث عرّض بهارون والد المأمون، وبالنظام العباسي كله، الذين لم يرعوا حرمة رسول الله (ص) .

ثانياً : إنه قال : فمن حل عقدة أمر الله بشدها إلخ، إشارة إلى خبث السرائر، وحبك المؤامرات ضد الولاية .

ثالثاً : قوله : بذلك جرى السالف إلى آخره، لعله إشارة إلى سكوت الإمام أمير المؤمنين عن جهة أو صبر الأئمة على الأذى خوفاً على شتات الدين واضطراب حبل المسلمين .

رابعاً : ثم بيان برنامجه للحكم الذي يخالف ما كان عليه عامة بني العباس، وبضمنهم المأمون ذاته .

خامساً : وقال أخيراً : والجامعة والجفر يدلان على ضد ذلك، حيث بيّن بذلك أنهم أصحاب علم رسول الله وأنهم أحق بالأمر منهم .

وعندما تهيء الناس للبيعة لفت الإمام نظره إلى أن طريقتهم للبيعة خاطئة مما أثار زوبعة في الناس، دعنا نستمع إلى الحديث التالي الذي جرى بين المأمون والإمام (ع) :

" يا أبا الحسن أنظر بعض من تثق به توليه هذه البلدان، التي قد فسدت علينا، فقلت له : تفي لي وأفي لك، فإني إنما دخلت فيما دخلت على أن لا آمر فيه ولا أنهى، ولا أعزل ولا أولي ولا أسير حتى يقدمني الله قبلك، فوالله إن الخلافة لشيء ما حدثت به نفسي، ولقد كنت بالمدينة أتردد في طرقها على دابتي، وإن أهلها وغيرهم يسألوني الحوائج فاقضيها لهم، فيصيرون كالأعمام لي، وإن كتبي لنافذة في الأمصار، وما زدتني في نعمة هي علي من ربي فقال : أفي لك " (7) .

وكانت من أعظم ما بيّن فضل الإمام، مجالس المحاجّة التي كان يعقدها بين فترة وأخرى، ولنستعرض معاً واحداً من هذه المجالس لنرى ماذا يدور فيها :

(قال الحسن بن محمد النوفلي : فبيّنا نحن في حديث لنا عند أبي الحسن الرضا (ع) إذ دخل علينا ياسر، وكان يتولى أمر أبي الحسن (ع) فقال : يا سيدي إن أميري يقرؤك السلام ويقول : فداك أخوك إنه اجتمع إليَّ أصحاب المقالات، وأهل الأديان، والمتكلمون من جميع الملل، فرأيك في البكور علينا إن أحببت كلامهم، وإن كرهت ذلك فلا تتجشم، وإن أحببت أن نصير اليك خف ذلك علينا، فقال أبو الحسن (ع) .

" أبلغه السلام وقل له : قد علمت ما أردت، وأنا صائر إليك بكرة إن شاء الله تعالى " (8) .

ثم بيَّن الإمام ما يدل على أن هدف المأمون من تشكيل مثل هذه المجالس، النيل من قدر الإمام حيث يظن أنه قد يتوقف عن محاجة خصومه ولكن الإمام قال للنوفلي (الراوي) :

يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون ؟ قلت : نعم، قال : إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم وعلى أهل الزبور بزبورهم، وعلى الصابئين بعبرانيتهم، وعلى أهل الهرابذة بفارسيتهم، وعلى أهل الروم برروميتهم، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم، فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته، وترك مقالته ورجع إلى قولي، علم المأمون أن الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له، فعند ذلك تكون الندامة منه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم " (9) .

ثم بيّن الحديث - بعد هذا الكلام - وضع الجلسة وقال :

(فلما دخل الرضا (ع) قام المأمون وقام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم، فما زالوا وقوفاً والرضا (ع) جالس مع المأمون حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا فلم يزل المأمون مقبلاً عليه يحدثه ساعة ثم التفت إلى الجاثليق فقال : ياجاثليق هذا ابن عمي علي بن موسى بن جعفر، وهو من ولد فاطمة بنت نبينا وابن علي بن أبي طالب (ع) فأحب أن تكلمه وتحاجه وتنصفه، فقال الجاثليق : يا أمير المؤمنين كيف أحاجّ رجلاً يحتجّ علي بكتاب أنا منكره، ونبي لا أؤمن به فقال الرضا (ع) : يا نصراني فإن احتججت عليك بإنجيلك أتقرّ به ؟

فقال الجاثليق : وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل، نعم والله اقرّ به على رغم أنفي . ثم قرأ الرضا (ع) عليه الإنجيل، وأثبت عليه أن نبينا (ص) مذكور فيه ثم أخبره بعدد حواري عيسى (ع) وأحوالهم، واحتج بحجج كثيرة أقرّ بها ثم قرأ عليه كتاب شعيا وغيره إلى أن قال الجاثليق : ليسألك غيري فلا وحق المسيح ما ظننت أن في علماء المسلمين مثلك . فالتفت الرضا (ع) الى رأس الجالوت واحتجَّ عليه بالتوراة والزبور وكتاب شعيا وحيقوق حتى أقحم ولم يُحِر جواباً .

ثم دعا (ع) بالهربذ الأكبر واحتجَّ عليه حتّى انقطع هربذ مكانه .

فقال الرضا (ع) : يا قوم إن كان فيكم أحد يخالف الإسلام وأراد أن يسأل فليسأل غير محتشم فقام إليه عمـــران الصابيّ وكان واحداً من المتكلمين فقال : يا عالم النّاس لولا أنّك دعوت إلى مسألتك لم أُقدم عليك بالمسائل، فلقـــد دخلت الكوفة والبصرة، والشام والجزيرة، ولقيت المتكلّمين فلم أقع على أحـــد يثبت لي واحـــداً ليس غيره قائماً بوحدانيّته أفتأذن أن أسالك ؟ قال الرضا (ع) : إن كان في الجماعة عمران الصابيُّ فأنت هو، قال : أنا هو، قال : سل يا عمران، وعليك بالنصفة وإيّاك والخطل والجور، فقال : والله يـا سيّدي ما أريد إلاّ أن تثبت لي شيئاً أتعلّق به، فلا أجوزه، قال : سل عمّا بدا لـك .

فازدحم الناس وانضمَّ بعضهم إلى بعض، فاحتج الرضا (ع) عليه وطال الكلام بينهما إلى الزّوال فالتفت الرضا (ع) الى المأمون، فقال : الصلاة قد حضرت فقال عمران : يا سيدي لاتقطع عليَّ مسألتي فقد رقَّ قلبي قال الرضا (ع) : نصلّي ونعود، فنهض ونهض المأمون، فصلّى الرضا (ع) داخلاً وصلّى الناس خارجاً خلف محمد بن جعفر، ثمّ خرجا فعاد الرضا (ع) إلى مجلسه ودعا بعمران، فقال : سل يا عمران، فسأله عن الصانع تعالى وصفاته وأُجيب إلى أن قال : أفهمت يا عمران ؟ قال : نعم يا سيّدي قد فهمت، وأشهد أن الله على ما وصفت، ووحّدت وأنّ محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحقِّ، ثمَّ خرَّ ساجداً نحو القبلة وأسلم .

قال الحسن بن محمد النوفليُّ : فلما نظر المتكلّمون الى كلام عمران الصابي وكان جدلاً لم يقطعه عن حجته أحد قطّ لم يدن من الرضا (ع) أحد منهم، ولم يسألوه عن شيء، وأمسينا، فنهض المأمون والرضا (ع) فدخلا، وانصرف الناس وكنت مع جماعة من أصحابنا إذ بعث إليَّ محمد بن جعفر فأتيته فقال لي : يا نوفلي أما رأيت ما جاء به صديقك، لا والله ما ظننت أن علي بن موسى خاض في شيء من هذا قط ولا عرفناه به، إنه كان يتكلم بالمدينة أو يجتمع إليه أصحاب الكلام ؟ قلت : قد كان الحجاج يأتونه فيسألونه عن أشياء من حلالهم وحرامهم فيجيبهم، وربما كلم من يأتيه بحاجة .

فقال محمد بن جعفر : يا أبا محمد إني أخاف عليه أن يحسده هذا الرجل فيسمه أو يفعل به بلية، فأشر عليه بالإمساك عن هذه الأشياء، قلت : إذاً لا يقبل مني، وما أراد الرجل إلاّ امتحانه ليعلم هل عنده شيء من علوم آبائه (ع) فقال لي : قل له : إن عمك قد كره هذا الباب، وأحب أن تمسك عن هذه الأشياء لخصال شتى .

فلما انقلبت إلى منزل الرضا (ع) أخبرته بما كان من عمه محمد بن جعفر فتبسم (ع) ثم قال :

حفظ الله عمي ما أعرفني به لم كره ذلك، يا غلام صر إلى عمران الصابي فائتني به فقلت :
جعلت فداك أنا أعرف موضعه وهو عند بعض إخواننا من الشيعة، قال : فلا بأس فقرَّبوا إليه دابة، فصرت إلى عمران فأتيته به، فرحب به ودعا بكسوة فخلعها عليه، وحمله ودعا بعشرة آلاف درهم، فوصله بها .
فقلت : جعلت فداك حكيت فعل جدك أمير المؤمنين (ع) قال : هكذا يجب، ثم دعا (ع) بالعشاء فأجلسني عن يمينه وأجلس عمران عن يساره، حتى إذا فرغنا قال لعمران : انصرف مصاحباً وبكّر علينا نطعمك طعام المدينة، فكان عمران بعد ذلك يجتمع إليه المتكلمون من أصحاب المقالات، فيبطل أمرهم حتى اجتنبوه ووصله المأمون بعشرة آلاف درهم، وأعطاه الفضل مالاً، وحمله وولاه الرضا (ع) صدقات بلخ فأصاب الرغائب) (10) .
وقصة استعداد الإمام لصلاة العيد التي أرهبت النظام دليل آخر على أن الإمام لم يترك فرصة إلاّ واستفاد منها لإعلان دعوته، وبيان أنه الأحق بالخلافة من البيت العباسي .
(لما حضر العيد بعث المأمون إلى الرضا (ع) يسأله أن يركب ويحضر العيد ويخطب لتطمئن قلوب الناس، ويعرفوا فضله، وتقرّ قلوبهم على هذه الدولة المباركة، فبعث إليه الرضا (ع) وقال : علمت ما كان بيني وبينك من الشروط في دخولي في هذا الأمر، فقال المأمون : إنما أريد بهذا أن يرسخ في قلوب العامة والجند والشاكرية هذا الأمر، فتطمئن قلوبهم ويقرُّوا بما فضّلك الله تعالى به، فلم يزل يرادّه الكلام في ذلك . فلما ألح عليه قال :
يا أمير المؤمنين إن أعفيتني من ذلك فهو أحب إلي، وإن لم تعفني خرجت كما كان يخرج رسول الله (ص) وكما خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .
قال المامون : اخرج كما تحب . وأمر المأمون القوّاد والناس أن يبكروا إلى باب أبي الحسن (ع) فقعد الناس لأبي الحسن (ع) في الطرقات والسطوح من الرجال والنساء والصبيان واجتمع القوّاد على باب الرضا (ع) .
فلما طلعت الشمس قام الرضا (ع) فاغتسل وتعمم بعمامة بيضاء من قطن وألقى طرفاً منها على صدره، وطرفاً بين كتفيه وتشمّر ثم قال لجميع مواليه : افعلوا مثل ما فعلت، ثم أخذ بيده عكازة وخرج ونحن بين يديه، وهو حاف قد شمّر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمَّرة .
فلما قام ومشينا بين يديه رفع رأسه إلى السماء وكبر أربع تكبيرات، فخيل إلينا أن الهواء والحيطان تجاوبه، والقوّاد والناس على الباب قد تزينوا ولبسوا السلاح وتهيأوا بأحسن هيئة، فلما طلعنا عليهم بهذه الصورة حفاة قد تشمّرنا، وطلع الرضا وقف وقفة على الباب وقال :

" الله أكبر الله أكبر الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، والحمد لله على ما أبلانا " ورفع بذلك صوته ورفعنا أصواتنا .
فتزعزعت مرو من البكاء والصياح فقالها : ثلاث مرات فسقط القوّاد عن دوابهم، ورموا بخفافهم، لما نظروا إلى أبي الحسن (ع) وصارت مرو ضجة واحدة ولم يتمالك الناس من البكاء والضجة .
فكان أبو الحسن (ع) يمشي ويقف في كل عشرة خطوات وقفة يكبر الله أربع مرات فيتخيل إلينا أن السماء والأرض والحيطان تجاوبه، وبلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل ذو الرئاستين : يا أمير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس فالرأي أن تسأله أن يرجع، فبعث إليه المأمون فسأله الرجوع فدعا أبو الحسن (ع) بخفه فلبسه ورجع) (11) .

(1) بحار الأنوار : (ج 49، ص 116) .
(2) راجع التاريخ الإسلامي .. دروس وعبر (للمؤلف) : (ص 290 - 296) .
(3) تاريخ المسعودي : (ج 3، ص 389) .
(4) المصدر : (ص 137 - 138) .
(5) المصدر : (ص 144) .
(6) المصدر : (ص 152 - 153) .
(7) المصدر : (ص 144) .
(8) المصدر : (ص 174) .
(9) المصدر : (ص 175) .
(10) المصدر : (ص 175) .
(11) المصدر : (ص 143 - 135) .

الفصل الثالث شهادته ومـزاره

وأخيراً دسّ إليه السم فمضى شهيداً شأن سائر أئمة الهدى الذين جاء عنهم الحديث الشريف : " ما منا إلاّ مسموم أو مقتول " .
ولكن من الذي فعل ذلك ؟ يرى طائفة كبيرة من العلماء أن المأمون كان وراء ذلك، بينما يستبعد ذلك البعض ويتساءل عما إذا كان المأمون بهذا المستوى من الدناءة أن يلوث يده بهذه الجريمة النكراء؟
وقد رأيت بعضهم قد ساق عشر أدلة على براءة المأمون عن دم سيدنا الإمام الرضا (ع) ولكنها عند التمحيص تنتهي إلى دليل واحد هو استبعاد وقوع تلك الجريمة من شخص نصب نفسه للدفاع عن أفكار المذهب الشيعي، وتبني أفضلية الإمام (ع) .
ولكن إذا عرفنا أن المأمون العباسي كان واحداً من الخلفاء العباسيين الذين تميز نظامهم بالغدر بأنصارهم، أو بالذين يخشون منهم من تابعيهم، ابتداء من أبو مسلم الخراساني وإلى برمك، وانتهاءً بفضل بن سهل . وإن المأمون كان متسنماً قمة هرم ذلك النظام الذي قد بنيت مؤسساته على أساس البغي والمكر والغيلة، فما الذي يمنعه عن اتباع سيرة أسلافه، وممارسة جرائم اجداده ؟
على أن عقائده في خلق القرآن أو تفضيل الإمام علي على سائر الصحابة أو ما أشبه لم تجعله من شيعة علي وآل علي (ع)، لأن استمراره في حكم المسلمين بذاته أكبر جريمة، وأعظم ذنب، وأُعتى طغيان في منطق علي وشيعة علي . إذ أنه نوع من ادعاء الربوبية ومنازعة الله في الألوهية !
ثم إن سيرته - مع الناس من القتل والتنكيل ونشر الفساد بمختلف ألوانه -، تتنافى وأبسط مبادئ التشيع لآل البيت (ع) . فماذا الذي يمنعه إذاً من ارتكاب جريمة القتل .. بحق آل بيت الرسالة ؟ .

وإننا لنقرأ في صفحات التاريخ ما يهدينا إلى أن شخص المأمون قد أشرف على عملية اغتيال الإمام عبر جهازه السري، الذي يشابه في أيامنا مخابرات قصر الإمارة أو الرئاسة في الدولة الأشد ديكتاتوريةً في العالم .
وقد جاءت هذه الخطوة بعد أن قمعت أو هدأت ثورات العلويين في أطراف الأرض، وانتهت فلسفة استدعاء الإمام إلى خراسان . وبعد أن بدأت تتجمع الغيوم فوق بغداد، وظهرت ارهاصات ثورة العباسيين، وأزمع المأمون على العودة إلى بغداد لاسترضاء بني عمه .. والعودة إلى سيرة أجداده من لبس السواد وتوزيع المناصب على ذوي قرباه .
ولعل الحديث التالي يوضح هذه الحالة التي تنبه لها الإمام الرضا (ع) وأشار إليها للمأمون ربما ليعرف هذا الأخير أن الإمام واقف على نواياه، وأنه إنما يسايره حسب المصلحة العامة .
قال الإمام الرضا للمأمون يوماً في حديث مفصل :
" اتق الله يا أمير المؤمنين في أمور المسلمين، وارجع إلى بيت النبوة، ومعدن المهاجرين والأنصار، ثم قال : أرى أن تخرج من هذه البلاد، وتتحول إلى موضع آبائك وأجدادك، وتنظر في أمور المسلمين، ولا تكلهم إلى غيرك، فإن الله عز وجل سائلك عما ولاّك " (1).
ثم إن الفضل بن سهل تنبه إلى ذلك أيضاً فتراه يمتنع عن الرحيل مع المأمون، ويعتذر في ذلك إليه بالقول : إن ذنبي عظيم عند أهل بيتك وعند العامة، والناس يلومونني بقتل أخيك المخلوع، وبيعة الرضا ولاءً من السعادة والحساد، وأهل البغي ان يسعوا بي، فدعني أخلفك بخراسان) (2).
ولكن المأمون يصد عليه بذلك وقد دبر له أمراً . إنه لا يريد اغتياله في معقل قوته وبين أنصاره وأعوانه بل في الطريق . و- فعلاً تقول الرواية - فلما كان بعد ذلك (والحوار بين المأمون والفضل) - بأيام ونحن في بعض المنازل - دخل الفضل الحمام فدخل عليه قوم بالسيوف فقتلوه، واجتمع القواد والجند ومن كان من رجال ذي الرئاستين على باب المأمون، فقالوا : اغتاله وقتله فلنطلبن بدمه (3) .
وهكذا تخلص المأمون من أبرز مراكز القوى داخل سلطته، ولم يبق أمامه إلاّ الإمام الرضا (ع) الذي تم اغتياله بعد ذلك بأيام قلائل .. أوَلا يدل قرب وفاته (ع) وقتل الفضل على وجود مؤامرةٍ قذرةٍ ضده .
هكذا يتأكد لنا ما يذهب إليه المشهور من العلماء الشيعة بأن الإمام استشهد بسم المأمون حسبما يقول العلاَّمة المجلسي بقوله : الأشهر بيننا أنه مضى شهيداً بسم المأمون، ونضيف .. وينسب إلى السيد علي بن طاوس أنه أنكر ذلك (4).
دعنا نستمع إلى نبأ شهادته من لسان المعاصرين :
ألف : كان أبو الصلت الهروي من المعاصرين للإمام ومن صانعي الأحداث أو المراقبين لها عن كثب لصلته الوثيقة بالإمام، فيسأله أحمد بن علي الأنصاري عن سبب اغتيال المأمون للإمام الرضا (ع) فيقول له : (كيف طابت نفس المأمون بقتل الرضا (ع) مع إكرامه ومحبته له، وما جعل له من ولاية العهد بعده ؟ فقال : إن المأمون إنما كان يكرمه ويحبه لمعرفته بفضله، وجعل له ولاية العهد من بعده ليري الناس أنه راغب في الدنيا فيسقط محله من نفوسهم، فلما لم يظهر منه في ذلك للناس إلاّ ما ازداد به فضـــلاً عندهم ومحلاً في نفوسهـــم، جلب عليه المتكلمين من البلـدان طمعاً في أن يقطعه واحد منهم فيسقط محله عند العلماء، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة .
فكان لا يكلّمه خصم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهرية ولا خصم من فرق المسلمين المخالفين له إلاّ قطعه وألزمه الحجة، وكان الناس يقولون : والله إنه أولى بالخلافة من المأمون

فكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيغتاظ من ذلك ويشتد حسده، وكان الرضا (ع) لا يحابي المأمون من حق، وكان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله فيغيظه ذلك، ويحقده عليه، ولا يظهره له، فلما أعيته الحيلة في أمره اغتاله فقتله بالسم) (5) .

باء : وينقل الشيخ المفيد - رضوان الله عليه - مجمل قصة شهادته، مع بعض التفسير لأسباب غيظ المأمون منه - فيقول :

(دخل الرضا (ع) يوماً عليه فرآه يتوضأ للصلاة يصب الماء على يديه، فقال : لا تشرك يا أمير المؤمنين بعبادة ربك أحداً .

فصرف المأمون الغلام وتولى تمام وضوء نفسه وزاد ذلك في غيظه ووجده) .

وكان (ع) يزري على الفضل والحسن ابني سهل عند المأمون، إذا ذكرهما ويصف له مساوئهما وينهاه عن الإصغاء إلى قولهما، وعرفا ذلك منه، فجعلا يخطئان عليه عند المأمون، ويذكران له عنده ما يبعده منه، ويخوفانه من حمل الناس عليه فلم يزالا كذلك حتى قلبا رأيه فيه، وعمل على قتله (ع) .

فاتفق أنه أكل هو والمأمون يوماً طعاماً فاعتل منه الرضا (ع) وأظهر المأمون تمارضاً، فذكر محمد بن علي بن حمزة، عن منصور بن بشر، عن أخيه عبد الله بن بشر، قال : أمرني المأمون أن أطول أظفاري على العادة، ولا أظهر ذلك لأحد ففعلت، ثم استدعاني فأخرج إلي شيئاً يشبه التمر الهندي فقال لي : أعجن هذا بيديك جميعاً، ففعلت، ثم قام وتركني ودخل على الرضا (ع) وقال له : ما خبرك ؟

قال : أرجو أن أكون صالحاً .

قال له : أنا اليوم بحمد الله أيضاً صالح، فهل جاءك أحد من المترفقين في هذا اليوم ؟ قال : لا، فغضب المأمون وصاح على غلمانه ثم قال : فخذ ماء الرمان الساعة فإنه مما لا يستغنى عنه، ثم دعاني فقال : أئتنا برمّان فأتيته به، فقال لي : أعصر بيديك، ففعلت وسقاه المأمون الرضا (ع) بيده وكان ذلك سبب وفاته، فلم يلبث إلاّ يومين حتى مات (ع) .

وذكر عن أبي الصلت الهروي أنه قال : دخلت على الرضا (ع) وقد خرج المأمون من عنده .

فقال لي : يا أبا الصلت قد فعلوها، وجعل يوحد الله ويمجده .

وروي عن محمد بن الجهم أنه قال : كان الرضا (ع) يعجبه العنب، فأخذ له منه شيئاً فجعل في موضع أقماعه الأبر أياماً، ثم نزع وجيء به إليه، فأكل منه وهو في علته التي ذكرنا فقتله، وذكر أن ذلك من لطيف السموم .

ولما توفي الرضا (ع) كتم المأمون موته يوماً وليلة، ثم أنفذ إلى محمد بن جعفر الصادق (ع) وجماعة آل أبي طالب الذين كانوا عنده، فلما حضروه نعاه إليهم وبكى، وأظهر حزناً شديداً وتوجع وأراهم إياه صحيح الجسد، وقال : يعزّ علي يا أخي أن أراك في هذه الحال . قد كنت أؤمّل أن أقدم قبلك، فأبى الله إلاّ ما أراد .

ثم أمر بغسله وتكفينه وتحنيطه، وخرج مع جنازته فحملها حتى أتى إلى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه، والموضع دار حميد بن قحطبة في قرية يقال لها سناباد على دعوة من نوقان من أرض طوس، وفيها قبر هارون الرشيد وقبر أبي الحسن (ع) بين يديه في قبلته، ومضى الرضا (ع) ولم يترك ولداً نعلمه إلاّ ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي (ع) وكان سنّه يوم وفاة أبيه سبع سنين(6).

جيم : ويصف ياسر الخادم اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الرضا (ع) حيث تجلت فيها روحه الربانية وخلقه المحمدي فيقول :

(لما كان بيننا وبين طوس سبعة منازل اعتل أبو الحسن (ع) فدخلنا طوس وقد اشتدت به العلة، فبقينا بطوس أياماً، فكان المأمون يأتيه في كل يوم مرتين فلما كان في آخر يومه الذي قبض فيه كان ضعيفاً في ذلك اليوم فقال لي بعدما صلى الظهر : يا ياسر أكل الناس شيئاً ؟

قلت : يا سيدي من يأكل ههنا مع ما أنت فيه .

فانتصب (ع) ثم قال : هاتوا المائدة .

ولم يدع من حشمه أحداً إلاّ أقعده معه على المائدة، يتفقَّدهم واحداً واحداً، فلما أكلوا قال : ابعثوا إلى النساء بالطعام .

فحمل الطعام إلى النساء فلما فرغوا من الأكل أغمي عليه وضعف، فوقعت الصيحة وجاءت جواري المأمون ونساؤه حافيات حاسرات، ووقعت الوجبة بطوس وجاء المأمون حاسراً يضرب على رأسه، ويقبض على لحيته، ويتأسف ويبكي وتسيل الدموع على خديه فوقف على الرضا (ع) وقد أفاق، فقال : يا سيدي والله ما أدري أي المصيبتين أعظم على فقدي لك وفراقي إياك أو تهمة الناس لي أني اغتلتك وقتلتك، قال : فرفع طرفه إليه ثم قال :

" أحسن يا أمير المؤمنين معاشرة أبي جعفر، فإن عمرك وعمره هكذا وجمع بين سبابتيه " (7).

كما أنه يصف الحوادث التي وقعت بعد وفاته مباشرةً، فيقول :

(فلما كان من تلك الليلة، قضى عليه بعد ما ذهب من الليل بعضه، فلما أصبح اجتمع الخلق وقالوا: هذا قتله واغتاله يعني المأمون، وقالوا : قتل ابن رسول الله واكثروا القول والجلبة، وكان محمد بن جعفر بن محمد (ع) استأمن إلى المأمون وجاء إلى خراسان وكان عم أبي الحسن، فقال له المأمون : يا أبا جعفر أخرج إلى الناس وأعلمهم أن أبا الحسن لا يخرج اليوم وكره أن يخرجه فتقع الفتنة، فخرج محمد بن جعفر إلى الناس فقال : أيها الناس تفرّقوا فإن أبا الحسن لا يخرج اليوم، فتفرق الناس وغسل أبو الحسن في الليل، ودفن) (8).

وبقي ضريح الإمام الرضا (ع) مزاراً يؤمه شيعة أهل البيت (ع) ومحبوهم لما أُثر عن النبي (ص) وأهل بيته من الترغيب في ذلك، فقد روي عن النبي (ص) أنه قال :

" ستدفن بضعة مني بأرض خراسان لا يزورها مؤمن إلاّ أوجب الله عزّ وجلّ له الجنة، وحرّم جسده على النار " (9).

وروي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال :

" يخرج ولد من ابني موسى اسمه اسم أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) إلى أرض طوس، وهي خراسان يقتل فيها بالسم، فيدفن فيها غريباً، من زاره عارفاً بحقه أعطاه الله تعالى أجر من أنفق من قبل الفتح وقاتل " (10).

وطفق الشعراء يرثونه بما يفتت كبد الحجر ألماً . كما أخذوا بفضح أولئك الغدرة الذين اغتالوه بالسم، فقال دعبل ضمن قصيدة :

أرعتم ذئـــابـاً من أمـــيّة وانتحـت * عليهم دراكـــاً أزمـــــة وسنــــون
وعـــاثـت بنـوا العبّاس فـي الـــدين * عـــيثـة تحكم بـه ظالــم وظـــنيـــن
وسمـوا رشيداً ليــــس فيهـم لـرشـده * ومـا ذاك مـــــأمون وذاك أميـــــن
فمـا قبلـت بالرشـد منهم رعـــايــــة * ولا لـــولــــي بالأمـانـــــة ديــــن
رئيسهـم غـــاد وطفــلاً بـــعـــــده * لهـذا دنــا بـــــاد وذاك مجـــــون

ألا أيهـا القــبر الغـــــــريـب محلـه * بطـوس عليـك الساريــات هتـون(11)

وقال أبو فراس الحمداني يرثي الرضا (ع) :

بـاؤوا بقــتـــــل الرضــا مـن بعـد بيعته * وأبصـروا بعضــه مــن رشدهـم وعمــوا

عصابــة شقيت مـن بعــــد مـا سعـدت * ومعشـر هـــلكـوا مـن بعـــدما سلموا

لا بيعــة ردعتهم علــى دمـائهـــــم ولا * يـمين ولا قـــــربى ولا رحــــم (12)

كلماته المضيئة :

هل يكفي الإنتماء الاسمي إلى الإمام الرضا (ع) من دون معرفته، والاستضاءة بنور علمه ومعارفه ؟ وكيف يرجو شفاعة النبي وأهل بيته يوم الجزاء من لم يتبع سننهم، ويهتدي بنورهم ؟

إن علينا أن نبحث عن وصاياهم التي خلفوها لنا كنوز لا تنفد، وتلاد نعم لا تضاهى .

والإمام الرضا (ع) خلّف ميراثاً عظيماً من المعارف والعلوم، خصوصاً في ا لحكمة الإلهية وبيان فلسفة الأحكام والرد على المذاهب الباطلة .

ونحن في خاتمة كتابنا الذي تشرّف باسمه نثبت وصاياه الرشيده وأشعاره الحكيمة، لعلنا ننتفع بها :

قال علي بن شعيب :

(دخلت على أبي الحسن الرضا (ع) فقال لي : يا علي من أحسن الناس معاشاً ؟ قلت : يا سيدي أنت أعلم مني، فقال : يا علي من حسن معاش غيره في معاشه، يا علي من أسوأ الناس معاشـاً ؟ قلت : أنت أعلم، قال : من لم يعش غيره في معاشه، يا علي أحسنوا جوار النعم فإنها وحشية ما نأت عن قوم فعادت إليهم، يا علي إن شر الناس من منع رفده وأكل وحده وجلد عبده، أحسن الظن بالله فإن من حسن ظنه بالله كان الله عند ظنه، ومن رضي بالقليل من الرزق قبل منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤونته ونعم أهله، وبصَّره الله داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام . ليس لبخيل راحة، ولا لحسود لذة، ولا لملول وفاء، ولا لكذوب مروءة) (13).

وقال (ع) :

(أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيرى الدنيا ويوم يموت فيعاين الأخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا، وقد سلّم الله على يحيى وعيسى (ع) في هذه الثلاثة المواطن، فقال في يحيى : { وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً } (مريم / 15)، وفي عيسى : { وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } (مريم / 33) .

لا يتم عقل امرئ مسلم حتى تكون فيه عشر خصال :

(الخير منه مأمول والشر منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه، لا يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يمل من طلب العلم طول دهره، الفقر في الله أحب إليه من الغنى، والذل في الله أحب إليه من العز في عدوه والخمول أشهى إليه من الشهرة، ثم قال : العاشرة وما العاشرة، قيل له ما هي ؟ قال : لا يرى أحداً إلاّ قال هو خير مني واتقى، إنما الناس رجلان رجل خير منه وأتقى ورجل شر منه وأدنى، فإذا لقي الذي هو شر منه وأدنى قال : لعل خير هذا باطن وهو خير له وخيـــري ظاهر وهـــو شر لي، وإذا رأى الذي هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، فإذا فعل ذلك فقـــد علا مجده وطاب خيره وحسن ذكره وساد أهل زمانه) (14).

وكان ينشد أشعاراً يقول فيها (ولعلها من إنشائه) :

إذا كـان دوني مـن بليت بجهـلــــــه * أبـيــــت لنفسي أن أقـابـل بالجهـل

وإن كـان مثلـي في محلـي من النـــهى * أخذت بحــــملـي كي أجـلّ عـن المثـل

وإن كنت أدنى منه في الفضـل والحجى * عـرفت لـه حـق التقدم والفضـل (15)

وقــال :

إنـّك فــي دنــيـاً لهـــــا مـــــدة * يقبـــل فيهـا عــمـل العـــامـل

أما تــرى الموت محيطــــاً بهـا * يصلب فيهـــا أمـــل الآمـــل

تعجـــل الــذنب بمـــا تــنتـهـي * وتـأمـــل التــوبة من قـــابـل

والموت يأتــي أهلــه بغـتــــة * مــاذاك فعل الحــازم العـاقل(16)

وإلى هنا نختم حديثنا المختصر عن حياة سيدنا الإمام الرضا (ع) نسأل الله أن ينفعنا به يوم القيامة ويجعل ذلك وسيلةً لاتباعنا له في الدنيا وشفاعته عند الله في الآخرة .

---

(1) بحار الأنوار : (ج 49، ص 165) .

(2) المصدر .

(3) المصدر : (ص 169) .

(4) المصدر : (ص 311) .

(5) المصدر : (ص 290) .

(6) المصدر : (ص 308) .

(7) المصدر : (ص 299) .

(8) المصدر : (ص 299) .

(9) المصدر : (ص 284) .

(10) المصدر : (ص 286) .

(11) المصدر : (ص 315) نقلاً عن مقاتل الطالبيين : (ص 372 - 373) .

(12) المصدر : (ص 314) .

(13) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص 148) .

(14) المصدر : (ص 147) .

(15) المصدر : (ص 150) .

(16) المصدر .

فهرست الكتاب

تمهيـد

الفصل الأول: وجاء المولود الميمــون
الفصل الثاني: الإمــام وعصــره
الفصل الثالث: شهادته ومــزاره